

## دلائل البيان في العربية (١)

من تدبر العلوم اللسانية في اللغة العربية كالصرف والنحو رأى انه قد مر بها حتى الآن ثلاثة ادوار الاول دور استقراء وتطبيق. الاستقراء هو استخراج احكام اللغة وقواعدها من اللغة نفسها كما فعل النحاة الاولون ثم صارت هذه الاحكام والقواعد قضايا مقررة تحوم حولها ابحاث من جاء بعدهم من المؤلفين يحاول كل منهم ان يطبقها على اللغة شاذها ومقيسها. اي استخراج النحاة الاولون من الجزئيات كليات ومن جاء بعدهم طبق الكليات على الجزئيات فيكون قد ابتدأ الدور بالاستقراء وانتهى بالتطبيق طرداً وعكساً. مثال ذلك استقراء النحاة الفاعل في جمل كثيرة فقالوا الفاعل مرفوع ثم قالوا ان لفظه رجل في قولنا جاء الرجل مثلاً مرفوع لانه فاعل. الدور الثاني دور التجريب والترتيب. كان هم كل مؤلف في هذا الدور تتبع الاحكام الكلية في مظانها وتوحيدها في فصول وابواب اشبه بالتهافت ضموا فيه النظر الى نظيره والفرع الى اصله ولكن لم يجيء احد منهم بشيء جديد من عنده بل اقتصروا على آراء البصريين والكوفيين وذكر الراجح والمرجوح من تلك الآراء بلا بحث ولا تكبير. الدور الثالث دور الاجتهاد. حاول المؤلفون فيه ان يخرجوا من عهدته ذلك التقليد بان يذكروا هنا وهناك بعض آراء لم يسبقهم اليها احد ففتحوا بذلك باب الاجتهاد. ولا شك اننا اصبحنا اليوم في زمان لا بد فيه من اعادة النظر في كل ما وضعه الاولون وتلمناه منهم كقضايا مقررة لا تقبل الاعتراض او الانتقاد وبناء ذلك على مبادئ جديدة علمية فان عندنا من الوسائل ما لم يكن عندهم. كان علماء اللغة في قديم الزمان لا يعرفون غير اللغة العربية ولم يكونوا يعرفون ما يسمى اليوم بعلم مقابلة اللغات بعضها ببعض او ما يسمى علم تحليل اللغات او فلسفتها. بل حاول بعضهم التعمش لهذه الابحاث منهم ابو التمع عثمان بن جني الموصل في كتابه

(١) محاضرة للغة في الجامعة المصرية في اواخر ديسمبر الماضي حضرة الفاضل خليل المندي السكاكيني ناظر الترم العربي في الدرسة السيدية . وهو اول سوري خطب في الجامعة المصرية

الخصائص في اللغة وسر الصناعة في النحو ولكن اجتهادهم كانت في عهد طفوليتها  
 واما اليوم فقد ارتقت هذه العلوم وصارت خصائص اللغة واسرارها علماً بأصول  
 واصبح عالم اللغة لا غنى له عن تعلم اخوات تلك اللغة بل لغات اخرى عديدة  
 قديمة وجديدة . وقد عرفت في بلاد الانكليز واميركا اساتذة كثيرين من علماء  
 اللغات الشرقية يعرف الواحد منهم مع اللغة العربية العبرانية والسريانية والحبشية  
 والتركية والفارسية والسكربتية ما عدا اللغات الاوربية الحديثة والتقدمة الى  
 ما يجاوز العشر لغات . وقد ثقيت في كبردج شيخاً مصرياً وهو استاذ في احدى  
 المدارس المالية في القطر المصري فلما رأى من سفة معرفة اولئك الاساتذة  
 وتبحرهم في علم اللغات قال في قصيدة أرسلها الى احد العلماء في مصر

انا في بلاد الانكليز اسير كالطفل الصغير  
 في كبردج مدينة العرفان ليس لها نظير  
 فيها الاساتذة الفخام ومن يعادل شكبير  
 لا علم لي حتى اجادهم ولا عقل كبير  
 لكنني مسترشد شأن الضرير مع البصير  
 وقد ذكرتك قائلاً في مصرنا البدر المنير  
 كل باطراف البنات اليه اجلاً يشير

ولاولئك العلماء مؤلفات غزيرة المادة مشبعة اتفصول في تاريخ اللغات وفلسفتها  
 ومقابلتها بعضها ببعض استعملوا خوامضها واحتبطنوا دخالها واستخرجوا منها  
 حقائق بنيت عليها العلوم الهائية في لغاتهم . وأول من طرق هذه الابحاث  
 الجديدة في اللغة العربية على ما اذكر احمد فارس الشدياق والشيخ ابراهيم اليازجي  
 وجورجي زيدان وروحي الخالدي المقدسي وجبر ضومط وبتدي الجوزي المقدسي  
 والستاس الكرملي ثم اقتطع المهدي تلك الابحاث ولم تترتب عليها فائدة عملية  
 ولعل لذلك سبب الاول تراجع النهضة وقلة المشتغلين بها والثاني عدم المرأة  
 على ابداء رأي جديد . وقد خطر لي اثناء معالجاتي هذه المواضيع من النظرات  
 والخواطر ما اتجرأ على عرضه عليكم شيئاً بعد شيء . وانا لا اجعل ان بضاعتني  
 مزجة وان رأس مالي يزد يسير . وسأقتصر في محاضرتي هنا على الكلام عن دلائل

البيان التي تتميز بها وظيفة الكلمة في الجملة فاقول : تتميز وظيفة الكلمة في الجملة  
 اما بالتقرينة المعنوية نحو فهم موسى المعنى او فهم المعنى موسى فان التام هو  
 موسى والمفهوم هو المعنى اذ لا يصح غير ذلك . واما بالترتيب نحو سبق اخي  
 غلامي لان كلا منهما يصح ان يكون سابقاً او سابقاً ذكرنا السابق اولاً  
 والمسبوق ثانياً لان علاقة الفعل بالفاعل سابقة لعلاقته بالمفعول واما بالاعراب  
 نحو ضرب زيداً عمراً او ضرب عمراً زيداً الضارب هو زيد والمضروب هو  
 عمرو في الجملتين وند فهمنا ذلك ليس من المعنى لانه يصح ان يكون كلاهما ضارباً  
 او مضروباً وليس من الترتيب لان كلمة زيد جاءت قبل كلمة عمرو في الجملة الاولى  
 وبعدها في الجملة الثانية وانما عرفنا ان زباً هو الضارب لانه مرفوع وان عمراً  
 هو المضروب لانه منصوب فدلائل البيان ثلاثة القرينة والترتيب والاعراب  
 وهذا آخر ما وصلت اليه اللغة العربية ولا بد ان تكون هذه الدلائل قد مرت  
 على ادوار مختلفة قبل ان وصلت الى صورتها الحاضرة التي ورثناها من عهد  
 التدوين جرياً على ناموس النضوء والارتقاء كما سنبينه فيما يلي

### — القرينة —

لا شك ان القرينة هي اقدم واسطة لبيان وظيفة الكلمة وقد مر زمان  
 طويل على اللسان كان الاعتماد في بيان المعنى على القرينة وحدها وذلك قبل ان  
 يكون في اللغة ترتيب سلووم او اعراب اختياري . فكانوا يقدمون او يؤخرون  
 وكانوا يرفعون او ينصبون او يخفضون او يحزبون او يبنون كما يشيء منهم اتفاقاً  
 اغير قصد . ولما كان اعتمادهم في هذا الدور على القرينة وحدها فلا بد ان كان هناك  
 قرائن كثيرة تختلف رصوحاً او خفاء يتدلون بها على المعنى . ولاعتيادهم الاعتماد  
 على القرينة فلا بد انهم كانوا يتجهون لاداء القرائن والاعراب ومع ذلك فان التام  
 كان صعباً لما يقع فيه من الغبس والغموض احياناً فلو ان مواضع الكلام كانت  
 بسيطة يدرك المعنى منها بقل لمحتمل . . من تلك القرائن طبقة الصوت وهيئة اطلاقه  
 بين ان يكون لينا او حشكاً مالياً او ساقلاً مما هو بالصوت الموسيقي اشبه منه  
 بالصوت المنطقي كما قال ابياسجى ولا توال آثار ذلك في اللغة الى اليوم كاستخفاف  
 اللهجة في الاستفهام او التعجب منها في الخبر . بل لولا اختلاف اللهجة لاصبح

كثير من الكلام لغيره. نكرر الالفاظ للتأكيد مثل جاء الامير الامير ولكن اذا لم نرفع الصوت قليلاً في اللفظة الثانية فلا تأكيد فيها ولو كررناها عشر مرات . تتبع اللفظة باخرى لبيانها مثل جاء اخوك زيد ولكن اذا لم تكن الثانية اعلى نغمة من الاولى فلا تفيد بياناً . نستعمل إن للتأكيد ولكن اذا لم نجعل النبرة شديدة على التون فلا تفيد تأكيداً الى غير ذلك مما لا يتسع المجال للافاضة فيه . بل ان اللفظة قد تقلب المعنى الى ضده . يقال انه حكم مرة على رجل ان يقف امام الناس ويقول « ايها الناس انا لئس » فلما وقف قال « ايها الناس انا لئس » ؛ بلهجة استنهام فالتعبير المعنى من اقرار الى انكار . ومن القرائن الاشارات وملاحح الوجه يقال ان بعض زئوج افرقيا اذا غابت الشمس سكنت جلستهم لانهم لا يستطيعون ان يتفاهموا بالكلام وحده وبسبب ظلمة الليل لا يستطيعون ان يستعينوا بالاشارات والملاحح . بل انك اليوم لا تجد اعداء يتكلم بدون ان يستعين بالاشارات والملاحح على تعوية مناه او ايضاحه او استدعاء الانتباه اليه بمبادل على ان اللغات على ارتقاءها واتساعها لا تزال ناقصة وانها دون التصوير والموسيقى . فان المصور قد يصور بريشته ما تعجز ارقى اللغات عن الغناء فيه والموسيقى قد يترجم بنغماته عما لا يؤديه كلام . هذا على ارتقاء اللغات في هذا العصر فكيف يوم كانت في اول عهدنا . وعلى ذلك فليست الغاظ اللغة هي اللغة كلها بل هي جزء من اللغة تتسمه الاشارات والملاحح وطبقة الصوت وقرائن اخرى . وهذا سر ان التشبيه ابلغ من الحقيقة . اذا اردت ان تصور شخصاً غريباً لغيرك فهما دقت في وصف ملامحه وتفاصيله وادواته وبيان لونه وطوله وعرضه فانك لا تستطيع ان تعطي الصورة الحقيقية عنه ولكن يكفي ان تذكر شخصاً يعرفه ثم تقول انه يشبهه شيئاً تاماً فانه يستطيع حينئذ ان يتصور ذلك الشخص في ذهنه . فلو كانت اللغة كافية لما كانت هناك حاجة الى التشبيه . ومن تدبر اللفظة العربية وجد فيها شيئاً كثيراً من لغة الملاحح والاشارات مثل قولهم في الخوف امتقع لون فلان واقشمر جلده وامطاحت ركبته وارتمت فرائسه وارضت مفاصله ومثل قولهم في الغضب قطب وجهه وزوى ما بين عينيه وانتفخت اوداجه وتزيد فوه الى غير ذلك مما يصور المعنى تصويراً . ولا شك ان ذلك من آثار ذلك العهد الذي كانت

فيه الملاحح والاشارات قرائن على المعنى وهو ايضاً سران الخطاب والانشاء  
والتمثيل والفناء واقع في النفس من القراءة الفكرية

— الترتيب —

مرّ على اللغة زمان نويل والترتيب فيها مشوش لغير سبب اعتماداً على القرائن  
التي تقدم ذكرها . ولا يزال في اللغة آثار هذا التشويش اذ لا تزال تقدم تارة  
الموصوف على الصفة فنقول ليس في المسألة امر كبير وتارة انصفه على الموصوف  
فنقول ليس في المسألة كبير امر . ثم دخلت اللغة في دور ثالث لم الترتيب فيه صورة  
معلومة كذكر الفاعل قبل المفعول وذكر المسند اليه قبل المسند لاعتبارات  
خصوصية عندم ليس هذا محل بسطها . ولا يزال تراعي هذا الترتيب اذا لم يكن  
هناك قرينة معنوية او قرينة اعرابية . وبعد ان تولد الاعراب في اللغة دخلنا  
في دور ثالث محررتا فيه من قيود الترتيب وعدنا الى التشويش . والفرق بين هذا  
الدور والدور الاول ان التشويش كان في الدور الاول اعتبارياً قصار في الدور  
الثالث لاغراض بيانية مقصودة وهذا ارقى ما وصات اليه اللغات في البيان حتى  
الآن . وقد ساعدنا على ذلك امران القرينة والاعراب ولولا الاعراب للزم الترتيب  
صورة معلومة لا يتعداها على ما تراها في اللغات الاخرى فان الفاعل في اللغة  
الانكليزية مثلاً لا يجيء الا قبل المفعول سواء دل عليه القرينة اولا بسبب  
انها ليست لغة اعرابية وكما تراها في اللغة العربية تسها اذا كانت الكلمات لا تقبل  
اعراباً او لم تكن . هناك قرينة معنوية فانه للزم الترتيب فنذكر الفاعل قبل  
المفعول مثل سبق اخي غلامي ونذكر المسند اليه قبل المسند اذا استويا في  
التعريف والتنكير ولم يكن هناك قرينة للتمييز بينهما مثل اخي رفيقي وفضل  
منك افضل مني . فالادوار التي حرت على الترتيب ثلاثة الاول الدور المشوش  
لغير قصد اعتماداً على القرينة . والثاني في الدور المرتب لاعتبارات خصوصية . والثالث  
الدور المشوش لاغراض بيانية اعتماداً على الاعراب والقرينة

— الاعراب —

من تتبع الدرجات التي حرت عليها اللغات في انتقالها من الدور التقليدي الى  
الدور النطقي التي من تقليد الاصوات تقليداً بسيطاً الى الفاظ مستقلة يدل بها على

المعاني دلالة صغاء لا تظهر فيها صيغة التقليد كما قال المرحوم جرجي زيدان يرى ان الاعراب هو آخر ما وصلت اليه اللغات حتى الآن وعلى ذلك فهو عنوان رقيها . وهذا يحتمل كلاماً طويلاً ليس من غرضنا في هذه المجالة التمرس له . وانما غرضنا هنا هو ان نشير الى الادوار التي مرت على الاعراب الى ان وصل الى حاله الحاضرة ثم نتبع ذلك بكلمة في الاعراب تسمي نجملها خاتمة هذا البحث . كان الاعراب في دوره الاول مشوشاً فكانوا يرفعون او ينصبون او يخفضون او يحزمون احتباطاً لغير قصد ياتي اعتماداً على القرينة والترتيب ولعل الغرض من الاعراب في هذا الدور كان تزيين الكلام وزخرفته فقولك جاء الضارب بضم الباء أتق من قولك جاء الضارب بأسكانها ولعلمهم استعماله في اول الامر في الشعر لما يتوخونه فيه من الزخرفة والتأنق ولما القوه استعماله في النثر ايضاً . ومن تدبر الشعر في اللغة العامية ليومنا هذا رأى أنهم قد يحركون من اواخر الكلم فيه ما لا يحركونه في كلامهم العادي وتلك حالة في اللغة اي الاعراب المشوش بدون ضابط لا بد ان يأول امرها اما الى الالغاء بتاتا او الدخول في دور ثان يستخدم فيه الاعراب لغرض آخر لا مجرد الزينة او الضرورة الشعرية . والواقع ان الالغاء ابتداء في اللغة ولكن في الوقف ولولا القليل لقط في كل المواطن وان اللغة دخلت في دور ثان استخدم فيه الاعراب لبيان وظيفة الكلمة في الجملة ولكن وقتت اللغة في اول هذا الدور قبل ان ينضج الاعراب ويتم احكامه في كل مواطنه كما سترى . ففي دوره الاول كان شيئاً خارجاً عن اللغة فاذا انني لم تتأثر لان الاعتماد في بيان المعنى كان على القرينة والترتيب ولذلك نرجح ان الفاعل في الوقف ابتداء في هذا الدور واما في دوره الثاني وهو الدور الذي تشوش فيه الترتيب لاغراض بيانية نص النحاة والسيانيون على مواطنها فقد صار من مقومات اللغة وخصائصها لان هناك مواطن كثيرة في الكلام لا دليل على المعنى فيها غير الاعراب فاذا انني رجعت اللغة الى اللبس والغموض . فأتت ترى ان الاعراب قد ساعد العرب على ان يستفيدوا من الترتيب المشوش في الدلالة على معانيهم تعجز اللغات الاخرى عن أدائها الا ان اللغة وقتت قبل ان يتم نضجها اي وصل اليها وفيه آثار التشويش وهذا التشويش نوحان نوح استعمل قديماً ثم اعمل ومن

تفقد كتب النحو وقع على شيء كثير من هذا فقد اجازوا نصب الاسم عند امن  
اللسن نحو خرق الثوب الممار وكسر الزجاج الحجر بنصب الممار والحجر ومنه  
قول الشاعر

مثل التناخذ هداجون قد بلغت نجرانُ او بلغت سوءاتهم حجرُ  
رفع نجران وجر ونصب سرعات وقاسم ابن الطراوة عملاً بقراءة فتلى  
آدم من ربه كلمات بنصب آدم ورفع كلمات ومنه ان بعض العرب كان ينصب بان  
او احدى اخواتها المبتدأ وانحر نحو  
اذا اسودت جنح الليل فلأنت ولتكن  
ونحو قوله

كان اذني اذا تشوقاً قادمة او قلماً محرماً  
وقوله يا ليت ايام الصبي رواجها ونحو قولهم لعل اباك قادماً. ومثله جزم  
التعل بعد ان مع انها من النواصب كقول الشاعر

لن يحب الآن من رجائك من حرك من دون بابك الخلقه  
ومثله جزم التعل بان الناصبة نحو قوله  
اذا ما غدونا قال ولدان اهلنا قملوا الى ان ياتنا الصيد نحضب  
ومثله اهلك لم اجازمة نحو قوله  
لولا التوارس من نعم واسرهم يوم الصليفاء لم يعرفون بالجار  
وقوله

ولضحك مني شيخه عشمية كان لم ترى قبلي اسيراً يمانيا  
وقال ابن مالك انها لغة وزعم الحياقي ان بعض العرب ينصب بها كقراءة  
بعضهم ألم نشرح. وقوله

في اي يوم من يومنا ابرم لم يقدر او يوم قدر  
ومثله افعال لا الناصبة نحو

لا تهين التقيرنك أنت تركع يوماً والدمر قد رفسه  
وان اولها النحاة بتقدير نون التوكيد الخفيفة - ومثله افعال اذا الشرطية  
في الشعر واهمالها في النثر - ومثله جزم اشعل المرفوع في قوله :

أبيت أسري وتبني تدلني وجحك بالخير والمك الشري  
ومثل قوله:

يا لك من قنبرة بمعر خلاك الجوف فيضي واصفري  
قد رفع الفخ فاذا تحذري

ومثل قوله:

ظالم اشرب غير مستحضر اثماً من الله ولا وانظر

الى غير ذلك... ومنه نوع لا يزال مستعملاً في اللغة الى اليوم واليك البيان  
يقول النحاة ان المعتد اليه والمندرفعان لانها عمدة ولشكنا تراهم ينصبون  
الاول بعد إن او احدى اخواتها وينصبون الثاني بعد كان او احدى اخواتها  
فماذا نصبا اذا كانا عمدة لاشك ان ذلك اثر من آثار التشريف في الاعراب. ومثله  
بناء ابي على الضم في مثل قولهم سلم على أبيهم افضل وبناء الظروف المنقطعة عن  
الاضافة في مثل قولهم الحمد لله من قبل ومن بعد ومثل بناء بعض الالفاظ المنبئية.  
فاذا كانت اللغة اعرابية فامعنى بناء بعض الفاظها. ومثل افعال ما على لغة اهل الحجاز  
وامهاها على لغة اهل نعيم بل اعمهاها على لغة اهل الحجاز بشرط ان تكون متصلة  
ولم يتقضى نبي خبرها إلا لا نجر ما زيد شاعراً وامهاها اذا لم تكن كذلك نجر  
ما قائم زيد وما غلامك عمرو وضارب وما زيد الا شاعراً وما ان عمرو كريم  
بغلاف ليس في ذلك كله مع انها نافية مثلها. ومثل نصب الجمع المؤنث العالم  
بالكسر ومثل اعراب النمل المضارع ولا سيما في حالي الرفع والنسب فتندحار  
النحاة في سبب اعرابه وغير ذلك مما ليس من فرضنا تعدادها واحصاؤه. وهذا  
النوع الثاني من التشويش اصبح قياسياً في اللغة. واكبر لذة في درس اللغات  
تكون في هذا المزيج من المعقول وغير المعقول والقياسي والشاذ وقد قال احد  
علماء اللغة ان اللغة مثل صديق هفراثة تمرزنا لدينا وتزيدنا حباة

ستأتي البقية